الخوف وسياسة التخويف

Mohamed Rabie

يُعتبر الخوف غريزة طبيعية يتصف بها كل إنسان، ولا يستطيع أحد من الناس التخلص منها مهما فعل، وهذا يجعل الخوف ذا تبعات نفسية واجتماعية هامة، تكون في الغالب سلبية على حياة الفرد والمجتمع. وعلى الرغم من أن بالإمكان إضعاف مسببات الخوف وتقليل شواهده على أرض الواقع، وبالتالي حصر وجوده ومحاصرة بعض تبعاته السلبية، إلا أن هاجس الخوف يبقى ماثلا أمام أعين الفرد والمجتمع في كل الأحيان. الأمر الذي يجعل الخوف قضية قابلة للتفعيل والاستغلال من قبل الأعداء والسلطة المهيمنة على المجتمع، ودعاة الإيمان بالعقائد الدينية والدنيوية. وبغض النظر عن طبيعة الخوف وأهدافه وأساليب التخويف، فإن تواجده وتذكير الناس به باستمرار يجعل الخوف حالة فردية وجماعية ومجتمعية مرضية وخيمة العواقب. وتحاول هذه الدراسة إلقاء بعض الضوء على ممارسات القوى التي تقوم بتخويف عامة الناس بغرض تزييف وعيهم والمهيمنة عليهم واستغلالهم وتدمير حياة الكثير منهم.

يميل الناس إلى الخوف من القويّ والظالم من الناس والدول، ومن القوى الحقيقية التي تملك القدرة على إلحاق الأذى بهم، والقوى الوهمية التي يتخيلون أنها تملك القدرة على ملاحقتهم وعقابهم متى أرادت. ويكون مصدر الخوف إما حقيقي يمكن رؤيته والتحاور معه أحيانا، وذلك كما هو الحال بالنسبة للأب في بيت عربي تقليدي، أو غير مرئي يتخيله الإنسان وتجسده قوى سلطوية مثل الشيطان والجن لا يمكن الاتصال بها والتحاور معها. كما أن من الممكن أن يكون مصدر الخوف سلطوي دنيوي تجسده مؤسسات حكومية وأجهزة قمع يصعب الاتصال بها ويندر التحاور معها. فعلى سبيل المثال، يصعب الاتصال بواضعي القوانين ولا يمكن التحاور مع القانون وإقناعه بتغيير رأيه، بينما من الممكن الاتصال بالصديق والجار والتحاور معه وإقناعه بتغيير رأيه أحياناً. وفي المقابل، لا يمكن الاتصال بالقوى الإلهية والقوى الوهمية للتحاور معها ومحاولة إقناعها بتغيير رأيها بالنسبة لما يهم الإنسان من قضايا إيمانية وغير إيمانية تؤثر في حياته ومستقبله. إضافة إلى ذلك، تجسد بعض الأشياء كالليل والجبال الشاهقة والعواصف العاتية البحار الهائجة والوحوش الضارية مصادر خوف حقيقية أحياناً ووهمية أحياناً أخرى تتراوح حدتها بين شخص وآخر ومجتمع وآخر.

ومهما قيل عن الخوف ومصادره المتعددة على الأرض وفي خيال الإنسان ومعتقداته الغيبية، الدينية وغير الدينية، فإن غالبية المجتمعات نجحت في التعامل مع الخوف بكفاءة والسيطرة على بعض مصادره ومظاهره من

خلال استيعابه كجزء من التقاليد الشعبية السائدة، ورفع مكانة الفرد في المجتمع ليصبح بإمكانه السيطرة على غالبية مصادر الخوف ومحاصرتها. وبالتحديد، يمكن القول أن المجتمعات الديمقراطية التي يعترف المجتمع والقانون فيها بحقوق الفرد، بما في ذلك حقه في التعبير عن رأيه والمشاركة في اتخاذ القرارات المصيرية التي تؤثر في حياته من خلال المشاركة في العملية السياسية، جعلت بإمكان كل مجتمع ديمقراطي التحكم في معظم مصادر الخوف التي تنبع من السلطة السياسية والدينية والاجتماعية. لكن إيمان الإنسان بوجود قوى غير مرئية ذات بأس يمكنها معاقبته إذا غضبت عليه جعل الإيمان مصدر خوف دائم لا يترك الإنسان المؤمن لا في حياته اليومية ولا في أحلامه. كما أن قيام بعض فئات المجتمع، خاصة الأثرياء والأقوياء، بإفساد العملية الانتخابية في معظم المجتمعات الديمقراطية جعل من الصعب على معظم الناس، خاصة الفقراء والضعفاء وأبناء الأقليات الثقافية والدينية، أن يثقوا بالدولة ورجالها؛ الأمر الذي جعلهم يميلوا إلى الشك في التزام الحكام بتطبيق القوانين المرعية.

من ناحية ثانية، إن الوجود الغريزي للخوف، وإيمان عامة الناس بوجود مصادر خوف دائمة وقادرة على إلحاق الأذى بهم، جعل بإمكان السلطة المهيمنة على حياة الفرد والمجتمع أن تستخدم الخوف سلاحاً للسيطرة على الناس وابتزازهم، والقيام أحيانا بمصادرة جزء كبير أو صغير من حقوقهم. إذ من خلال تخويف الناس من جبروت المجهول، وتذكيرهم بأحداث ماضوية مأساوية، وإقناعهم بوجود أخطار تهدد أمنهم وحياتهم، تقوم السلطة المهيمنة على المجتمع أو على فئة كبيرة منه بتزييف وعي بعض الناس ودفعهم إلى السير في اتجاهات كثيراً ما تتعارض مع قناعاتهم ورغباتهم ومصالحهم، وجرهم بالتالي إلى اتخاذ مواقف لا يتخذونها في ظل أوضاع حياتية خالية من الخوف والتهديد. وهذا ما تميزت به النخب المهيمنة على الفكر الديني والحركات الاجتماعية والأحزاب السياسية العقائدية.

وعلى سبيل المثال، لجأت أنظمة الحكم العربية عامة، وعلى مدى عدة عقود متتالية، إلى تخويف شعوبها من التغيير، وإقناعهم بأن غياب بعض القيادات التاريخية المعروفة بوطنيتها وكفاءتها عن ساحة العمل السياسي من المؤكد أن تكون له عواقب وخيمة أو كارثية، كغياب الرئيس جمال عبد الناصر عن مصر، والرئيس الحبيب بورقيبة عن تونس، والرئيس حافظ الأسد عن سوريا، والملك حسين عن الأردن، والملك الحسن الثاني عن المغرب. ولقد كان من نتيجة ممارسة سياسة التخويف هذه تجميد الأوضاع السياسية، وأحيانا النشاطات الفكرية والعلمية والثقافية لعقود، والاستمرار في كبت الحريات العامة، وتعطيل محاولات الإصلاح الثقافي وعمليات التنمية الاقتصادية لحساب الحفاظ على أمن النظام. وهذا تسبب في تنامي نفوذ التيار الديني الأصولي واتجاهه نحو المزيد من التطرف فكراً وفعلاً ومواقف، أسهمت بدورها في تخويف الحكام وتعطيل عمليات تطوير نظم التعليم وتحديث القوانين ومنح المرأة حقوقها. كما كان من نتائج ذلك أيضاً تفتت الثقافة العربية إلى ثقافات فرعية وتفتت المجتمع

العربي إلى تجمعات إثنية ومذهبية وعقائدية، وطغيان الإحباط واليأس على الشارع العربي، وتكريس حالة التخلف والتبعية على الأرض العربية، وتراجع دور العرب، سياسة وثقافة وعلماً واقتصاداً، على الساحة الدولية. وبعد أن غابت شمس تلك القيادات جميعاً اكتشف الناس أن حالة الاستقرار لم تتأثر، وأن الحريات تحسنت قليلا أحياناً وساءت كثيرا أحياناً أخرى، وأن الاقتصاديات الوطنية شهدت تحركاً ايجابياً في بعض الدول، وأن الشعوب العربية فقدت فرصتها في التغيير والنهوض وتحقيق التقدم حين كان ذلك متاحاً.

وكما لجأت أنظمة الحكم العربية إلى ممارسة سياسة التخويف للسيطرة على شعوبها وابتزاز معظمهم لعقود، والتسبب في رجوعهم إلى الخلف فكرياً وثقافياً واجتماعياً وتخلفهم عن العصر، قام الرئيس جورج دبليو بوش بممارسة نفس السياسة في أمريكا لتخويف الشعب الأمريكي من الإسلام والمسلمين عامة. ولقد تسببت هذه السياسة في دفع الكثير من الأمريكيين نحو المزيد من التطرف والعنصرية والتفرقة ضد المسلمين والسود والأقليات الأمريكية التي تنتمي لأصول لاتينية وآسيوية. نتيجة لذلك اتجهت الدولة والشعب في أمريكا إلى اتخاذ مواقف غير عقلانية وغير أخلاقية تتعارض مع مصالح أمريكا الوطنية، وتنتهك حقوق الأمريكيين من أصول عربية بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والفكرية ودورهم في الحياة الأمريكية. إن مما لا شك فيه أن الرئيس بوش وحزبه الجمهوري استفادا من سياسة التخويف بعد أحداث أيلول عام 2001 الإرهابية، حيث أعيد انتخاب بوش لفترة رئاسية ثانية رغم سجله الحافل بالفشل في المجالات المختلفة، بمن فيها حروبه في العراق وأفغانستان.

وحتى بعد انتهاء حكم بوش، لم تتوانى النخبة الحاكمة في أمريكا والفئات المنتمية إلى اليمين يوماً عن تذكير الأمريكيين بأحداث أيلول المؤسفة، ليس من قبيل حثهم على وعي أسبابها وتفهم دوافعها والعمل على تجاوزها باتخاذ مواقف عقلانية من الغير، بل من أجل تكريس الخوف في قلوبهم، وإجبارهم على وضع الاعتبارات الأمنية فوق سلم الأولويات في برامجهم الانتخابية وهمومهم الوطنية. لكن سياسة التخويف الأمريكية تسببت في عزل أمريكا عن الكثير من دول العالم، وتعميق شكوك المسلمين عامة في عقلانية قرارات أمريكا السياسية وتصرفاتها على الساحة الدولية ومصداقية قادتها. وهذا يعني أن قيام دولة بتخويف شعبها من شعوب أخرى وفئات غير منتمية لثقافة الأغلبية تتسبب عادة في زيادة حدة النعرة العنصرية وتبرير التفرقة في بلادها، فيما تدفع غالبية الشعوب الأخرى إلى الخوف منها ومن سياساتها العدوانية، واعتبارها خطراً يهدد الأمن والاستقرار في العالم.

إن الشعوب التي تعاني من الخوف وتقوم السلطة المهيمنة على الحياة فيها بممارسة سياسة التخويف، هي شعوب مغلوبة على أمرها، سائرة نحو المزيد من التخلف والتطرف وسيادة ثقافة الكبت والإرهاب التي تعمل على

إغلاق عقول أبنائها وإفساد أخلاقهم وتلويث ضمائرهم وتزييف وعيهم. إن من الممكن أن تسهم سياسة التخويف، وذلك كما أثبتت التجارب العربية وتجارب غيرها من دول بمن فيها أمريكا، في تحقيق مكاسب شخصية أو حزبية أو فئوية تقوم بتعزيز سلطة الحاكم والنخبة الفاسدة التي تحيط به، لكنها تقود في كل الحالات والأحيان إلى كوارث إنسانية ومآسي وطنية وتشوهات اجتماعية لا عد ولا حصر لها. وهذه كوارث ومآسي وتشوهات تدفع الأجيال التالية ثمنها على شكل دماء تُهدر في حروب عبثية، وفرص تضيع بلا سبب، وعقول تتخلف وثقافات تعجز عن مسايرة العصر. وهذا يقود بالتالي إلى شيوع حالة من التمحور العقائدي داخل الوطن يؤدي إلى تعطيل اتخاذ القرارات المصيرية في أوانها، وتجيير كل إنجاز وتوظيف كل فرصة لخدمة فئة على حساب الفئات الأخرى والمستقبل.

أما بالنسبة للدول العربية، فإن إشاعة الخوف بين الناس، واتباع سياسة التخويف كان لها نتائج كارثية نرى آثارها في كل مكان وعلى كافة الأصعدة؛ آثار سلبية خطيرة تشمل الجامعات والمدارس والمعاملات التجارية والقوانين والنشاطات الاقتصادية والعلمية والفكرية والثقافية. ويمكن القول أن أكثر التبعات سلبية بالنسبة للأمة العربية كانت نجاح تلك السياسة في تهجير ملايين الكفاءات العلمية والفكرية من أبناء الأمة العربة، وتقديمهم هدية بلا مقابل للدول الاستعمارية التي تنتهك حرمة بلادهم، وتصادر حقوق شعوبهم، وتستهين بذكائهم وإنسانيتهم، وتحول دون تقدمهم وتحررهم. وهذا تسبب في حرمان دول عربية من حق اكتشاف ما لديها من موارد طبيعية مثل الماء والبترول والمعادن النادرة، واستغلال تلك الموارد في تنمية الاقتصاديات الوطنية ورفع مستوى التعليم والخدمات الصحية، وتحقيق نهضة تمكنها في تجاوز خطوط الفقر والحاجة والتبعية واللحاق بالعصر.

بروفسور محمد عبد العزيز ربيع

البروفسور محمد ربيع يحمل لقب أستاذ متميز في الاقتصاد السياسي الدولي؛ درس في 5 جامعات، وقام بالتدريس في 11 جامعة في أربع قارات. نشر حتى اليوم 60 كتاباً، 17 باللغة الإنجليزية، وواحد باللغة الألبانية، والباقي باللغة العربية. وتشمل الكتب الإنجليزية أربعة نشرتها دار: Palgrave Macmillan خلال 4 سنوات، 2013-2017 : إنقاذ الرأسمالية والديمقراطية؛ التحول الاقتصادي والثقافي العالمي؛ نظرية في التنمية الاجتماعية الثقافية والاقتصادية المستدامة؛ أزمة الديون العالمية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية. أحد الكتب المنشورة بالإنجليزية، وعنوانه "تاريخ العنصرية" تُرجم إلى 6 لغات أخرى: الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والبولندية. أما الكتب العربية فتشمل 3 مجموعات شعرية، وروايتين، وقصة. والباقي كتب أكاديمية وفكرية وتأملات فلسفية، إضافة إلى عشرات الدراسات العلمية ومئات المقالات الفكرية.

الدكتور ربيع يرأس مجلس الفكر العربي في واشنطن، وعضو منتدى الفكر العربي، وزميل في مؤسسة ألكساندر فون هومبولدت الألمانية منذ عام 1992. وقد استطاع إكمال دراسته بالحصول على منح دراسية منذ المدرسة الثانوية حتى الحصول على الدكتوراه في الاقتصاد عام 1970 من جامعة هيوستن في أمريكا. حائز على جائزة دولة فلسطين التقديرية على مجمل الأعمال الفكرية، وجائزة

الجالية العربية في مدينة هيوستن للتميز الأكاديمي والقيادة، كما فاز بجائزة في الشعر في مهرجان تيتوفا في ماسيدونيا الجنوبية، وعدة جوائز أخرى حصل عليها من جامعات ومؤسسات عربية وأجنبية. وتعكس كتاباته ومواقفه ونشاطاته التزاماً بمبادئ السلم والعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والتنمية البشرية، فضلاً عن الاستدامة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية.

ولما كان شعاري هو : "المعرفة التي لا نشارك غيرنا فيها هي معرفة ضائعة، وأن المشاركة تتسبب في مضاعفة عدد المعرفيين"، فإنني أطلب من كل قارئ أن يوصي بكل دراسة وكتاب يُعجبه، لأنه بذلك يُساعد من لم يتعرف على الكتاب وما فيه من فكر مفيد. إننا جميعا نشترك في مسؤولية تغيير عالمنا ليكون أكثر ميلا للسلم والعدالة والحرية. وهذا هدف سامي لا يمكن تحقيقه دون أن نشارك جميعا في نشر المعرفة والوعي في كافة بقاع الأرض التي ورثناها وعلينا أن نحافظ عليها.

Links that give an idea about me and my interests.

https://scholar.google.com/citations?user=evo_c4QAAAAJ&hl=en&citsig=AMD79op143N3h2Qo7R_hDsZtzBuYxsGi6g

https://www.researchgate.net/profile/Mohamed-Rabie-2

https://www.encyclopedia.com/arts/culture-magazines/rabie-mohamed

Personal site; www.yazour.com